دورة الزمن الضائع

قصة بقلم احمد عودة

كما توقع بالضبط ، قبل أن يضع أي من الضيوف أول لقمة في فمه ، انبرت أمه تعـــدد مآثر أجدادها . يدهشه نسيانها ما حل بهم مـن أحداث مزلزلة أجبرتهم على النزوح مرتين . لا تفتأ تحكي عـــن أناس لا يتوفر شاهد واحد على صحة أخبارهم . انها تعلم حق العلم كم يضايقه نبشها التراب عن جثث متآكلة وهم مذ تركوا أرضهم وبيتهم يعيشون حياة أفضل منها الموت . مرة واحدة نضح لها ما في نفسه من قرف وشك . قبضت على قلبها وانحبست أنفاسها وتصنعت الاختناق . وبخه أبوه . هو أيضا له آباء وأجداد ويسعده ذكر ما صنعوه من بطولات خارقة . هو أيضا ينسى ما حلّ بهم مـــن نكبات مدمرة وانهم نزحـــوا مرتين . يدفن أشجانه بالحديث عن أناس تجثم عليهم أطنان من تراب . مستحيل أن ينسى أبوه ما حدث .

حمله في ليلة مظلمـــة وأمه تركض مـــن خلفه مفزوعة . ظل يرفس صدر أبيه محتجا على تركه الفراش الدافىء وبيـــــارة البرتقال والبيت الكبير ذا الساحة الواسعة حيث ثغا وحبا ولعب مع الصغار . وضعوه في خيمة على شكل عرنوس الذرة ، تهتز كلما لكزتها الريح. ظل أبوه يهرب من سؤال يلحّ عليه :

ـ لمَ لا نعود الى بيتنا يا أبي ؟

وأمه أيضا ظلت تخفي وجهها بيديها كلما سألهـا عن الدجاج وأبراج الحمام والطيور البرية التي تعشش في السقف المقبب . أما البرتقال فظل مدة طويلة لا يرى منه حبة واحدة . حاول عبثا نسيـــــانه . وحين بلغ اشتياقه اليه حافة الكفر ، قطع أبوه على نفسه وعـدا أن يأتي له به . عاد آخر النهار بمظروف فيـــه حبات صفراء كابية . كل واحدة منها منطوية على نفسها فـي خجل عذراء بلا تجارب . شعر انه لو مد يده سيصيبها الشلل . عنّفه أبوه :

ـ أليس هذا ما طلبت ؟ أم تراك تظن معي فائضا من نقود ؟

لم ير أباه بمثل هذا الوجه من قبل . وصوته كان هناك يقطر حنانا عذبا . والنقود التي كان يلعب بهـــا الطرة والنقش في عدد نجوم سماء بلا سحب . فلم كل هذا الغضب ؟ انه يكره هـذه الحبات الشاحبة ويشتاق أن يعود الى الاشجار الوارفة ، يتسلقها ، يهزها فتسقط له حبات مستديرة لامعة يقطر منهـا دم أحمر . ويكره هذه الخيمة ويهوى العودة الى البيت يصرخ في جنباتـه فتتردد أصـوات كثيرة يركض وراءها كي يمسك بهـا فتهرب . يظل يصرخ وتظل تهرب منه . لماذا يغضب منه أبوه بلا سبب ؟ وأمه أيضا تعبس وتدور عيناها كطـائر ذبيح كلما أتى عـــلى ذكر البيت ذي الشرفة المزروعة بالزهر ، كان يركب أكمـــامه تتفتح ، ثم وهي تمـوت باسمة . منذ استوطن معهما تلك الخيمة وحتى بعد أن انتقلا به الى بيت ذي ثلاث غرف طينية وهما يلعنـــان « أيار » . كره « أيار » هـــذا وحمّله مسؤولية تركه البيارة والبيت الكبير والساحة الواسعة . بحث عنـه طويلا . لم يجده . لو صادفه لقتله . لم يعرف انه ليس رجلا يلبس قبعة ويمشي على اثنتين الا بعد أن أدخلوه المدرسة ، سجن فيها دهرا الى أن جـــاء أيار وأطلق سراحه . ومع هذا لم يستطع أن يحبه أبدا .

الطعام يتناثر من أفواه الضيـوف رذاذا مزعجا . يتسلمون راية الحديث من أمه وأبيـه . هم أيضـا لهم آباء وأجداد ولهم مآثر تستحق الذكر . الاموات يقتحمون المكان . يتزاحمون على المائدة . كلهم أعجبوا بمقعـده . تخلى لهم عنه وانطلق الى غرفتـــه الصفيح . الكتب مزروعة في كل شبر . على الطاولة والرفوف ، وكذلك الخزانة الخشبية حبلى بها في شهرها التـاسع . جمع الكتب هواية قديمة يقطع بها الوقت ويقتل شكا يعذبه . « كيف انتقل فرسان البادية مـن الخيام الى القصور ، وكيف انتقل أحفاد هؤلاء من تلك القصور الى الخيام ؟ » . طالما نال جائزة أحسن قارىء . كانت المدرسة تفاخر به، تضعه على صدرها وساما يلمع . فيهـــا شهد كيفية طغيان ماض مشرق على حاضر مر . أستاذ التاريخ يردد مزهوا :

ـ كانت ذي قار بحق أول معركة انتصف فيهـــا العرب من العجم .

يحكي عن بطولات خارقة صنعها الاجداد في اليرموك وحطين وعين جالوت . كان يرى هؤلاء بعينه وهم يركبون الخيل ، يثيرون النقع ويمتشقون الرماح والسيوف . أمه على براعتها يعجزها أن تأتي بمثل هذا الكلام المنمق الذي أشرف على بنائه أكثر من مهندس بارع . لا تقول مثل الكتب والاستاذ .

ـ تاريخنا مرصع بمواقف البطولة وأشرف التضحيات .

لا ينكر انه كان من قبل ينتفخ زهوا بتلك الاسماء اللامعة التي صنعت ذلك التاريخ . يحفظها ويرددها . يتمنى لو انها ما تزال حية ترى وتسمع كيف يخبىء الحاضر وجهه في عباءة الماضي كطفل كسيح . مرارا سمع أمه تقول ان أمها كانت أعظم طاهية . الحرائون كانوا يشمون رائحة طعامها على بعد ميلين . وأمه لا تفتأ تهرش رأسها وترتبك حين تسلق بيضة . كل ما نقلته الكتب وما اعتاد سماعه في البيت والمدرسة ، يمر عليه كابوسا مزعجا . يفتته ، يبعثره أشلاء . بالكاد يلتقط أنفاسه ويعثر على نفسه الشاردة . النزوح مرتين يقتلع العينين من الوجه ويرميهما خلف الراس . يجعله يرى الاشياء من حوله مقلوبة تتدحرج بلا نظام . أيار من قبل لم يقص أجنحة الامل . ظل يتحداه بأن سيعود للبيت الكبير والبرتقال والساحة الواسعة يعلم فيها صغاره الحبو واللعب . قال له وهو ينتزعه من روزنامة الحائط :

ـ وداعا والى الابد .

فقد جاء حزيران . يسمع الاذاعة والشارع والاحلام العذبة تقول ان سيأتي أيار آخر بلا وجه كدر وبلا أظافر أو أنياب . سيحنطه حيوانا منقرضا من العصر الحجري . فقد جاء حزيران . ركل « أيار » ومضى يتبختر على صدر عام جديد وعمر جديد . سيعود الى البيت الكبير والى بيارة البرتقال والساحة الواسعة يرقب الصغار يلعبون بعدما تخطى هو مرحلة اللعب البريء . آماله أضخم من أن يتسع لها جلده . أفرغها في أذن أمه وأبيه . انطلقت أمه تثرثر عن مآثر أجدادها . أرخى لها أذنيه . شعر بكلامها يتغلغل في صدره . يدفعه الى الرقص والغناء . والكتب التي طالما رشقها بعين التوجس والشك ، احتضنها وقبلها ، فهي لا تقول غير الصدق .. فها هم الاحفاد يصنعون ما صنع الاجداد . يشبعون سمك البحر ممن خدعوا الانبياء أكثر من مرة . تحدث مزهوا عن ذي قار وحطين وعين جالوت . ضغطت أمه على أذنه ضاحكة :

ـ ها انت ذا أيضا لك أجداد تتحدث عنهم .

ضحك أبوه وبرم شاربيه ، تماما كما كان يفعل حين تأتيه أمه بالغداء فيترك المحراث ويسرح البغل ويجلس تحت شجرة برتقال كبيرة منيعة لا تنفذ منها الشمس .

الاذاعات تنزف كلاما مؤسيا تزاحمه الدموع . الشوارع تزحف عليها أجساد منهوكة يستوطنها اليأس . كان يود لو تزهق روحه في التو واللحظة قبل أن يغادر البيت ذا الغرف الثلاث الطينية فتستقبله خيمة شبيهة برأس البوم ينتقل منها الى حجرتين من الصفيح . كل ما حمله ذكريات حلوة مرة وكتب محشوة بمعارك الاجداد .

يغلق باب حجرة الصفيح عليه . تزحف عليه أرتال الكتب . يخرج منها رجال يركبون الخيل يثيرون بها النقع ويمتشقون الرماح والسيوف . تلمع في وجهه نصال حادة ويلفه غبار ، يسد عليه منافذ الشمس والهواء . يزايل مكانه ويركض أمام الخيل ويظل يركض .

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تاليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب